**الطبقة الاجتماعية والضبط الاجتماعي:**

**استعار علماء الاجتماع الأوائل مصطلح الطبقةClass من علم طبقات الأرضGeochronology الذي يتضّمن تراتب طبقات التربة الواحدة فوق الأخرى بحيث يستطيع المرء مشاهدتها عندما يأخذ مقطعاً عمودياً لقطعة صغيرة من التربة. هذه الحالة الطبيعية تشبه تراتب الناس في نظر علماء الاجتماع، بيد أن مقومات التراتب البشري تتكوّن من الثروة والنقود والاعتبار الاجتماعي والمنزلة الاجتماعية.(82)**

**ولمّا كان المجتمع البشري يمتلك هذه المقومات فلا يوجد مجتمع بشري خالٍ من الطبقة الاجتماعيةSocial Class منها ما تكون غنية وأخرى فقيرة ويكون معيار المنزلة الاجتماعيةSocial Status هو العامل الحاسم، ولها القدرة في جعل قسم من الناس يمارسون حقوقاً وواجبات وصلاحيات واسعة، وجعل القسم منهم يمارسون حقوقاً وواجبات ضعيفة أو ضيقة.**

**ويرى أصحاب النظرية الوظيفية وعلى رأسهم "كنجزلي ديفز" K.Davis و"ولبرت مور" W.Moor اللذان كتبا بحثاً مشتركاً عن الطبقية أثار الجدل بين علماء الاجتماع حتى الوقت الحاضر، وملخص بحثيهما "أن التمايز الطبقي Differential Class يعد أمراً ضرورياً ولابد منه في كل مجتمع، ويبرّران ذلك بقوليهما إن توزيع الثروات والمكافآت بطريقة غير متساوية يعمل بشكل غير مباشر على تحفيز الأفراد لتحسين مواقفهم الاجتماعية بشكل مستمر ويزيد شدة المنافسة من أجل الحصول على الثروة والمكانة الاجتماعية الأعلى."(83)**

**ويعود سبب التراتب الطبقيStratification في المجتمع إلى النظام الاقتصادي والسياسي الذي يدعم ويغذي توزيع الثروة والدخل بشكل غير متساوٍ أو غير متوازن ما يؤدي فيما بعد إلى خلق نمطية التراتب الطبقي في البناء الاجتماعي. علماً أن الوعي الطبقيClass Consciousness عنصرٌ ملازمٌ للوجود الطبقي على أن تكون الطبقة قد نمت إلى درجة كافية، فقد يحدث أحياناً أن يكون هنالك أفراد متقاربون في المنزلة الاجتماعية في مجتمع ما ولكن هؤلاء الأفراد لم يكوّنوا فئة معينة يمكن أن توصف بأنها متبلورة احتلت مكانتها الاجتماعية، وهنا نستطيع القول إن الطبقة موجودة لكنها لا تعي ذاتها.(84)وهناك شبه اتفاق بين علماء الاجتماع على أن هناك عاملين أساسيين يسهمان بقوة في وجود الوعي الطبقي وهما:-**

**1- التنافسCompassion بين الطبقات من أقوى عوامل الوعي الطبقي.(85)ومثله التنافس الذي أشار إليه "ماركس"K.Marx في دراسته للطبقية، حيث أشار إلى أن الطبقة المستَغَلة تشعر بتدهور أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وتفاقم مشكلاتها الإنسانية، وترى أن الطبقة المستغِلة تستهدف الإطاحة بها، وفي الوقت ذاته تشعر الطبقة المستغِلة بأنها مهدّدة، وتحت هذا الشعور تحاول أن تقف أمام هذا التهديد بكل قوة.**

**إن مثل هذا الصراع والتنافس يقوّي الوعي الطبقي في كلا الطبقتين ومن ثم يقود ذلك إلى زيادة التماسك الاجتماعي بين أعضاء كل طبقة منها في محاولة لتقويض الطبقة الأخرى وتحطيمها.**

**2- انعدام الحركية الاجتماعية، الذي يحصل حينما تستقر طبقة متحكّمة أو قوية في مكانها مكوّنة لها قواعد اجتماعية تؤمَّن لأفرادها الاحتفاظ بمراكزهم، وهنا تحاول هذه الطبقة منع أفراد الطبقات الأخرى من الصعود إلى منزلتها، حينئذٍ تتكون فجوةLag واضحة الحدود بين طبقتين متمايزتين عن بعضيهما، تشعر إحداها بالقوة والمقدرة على منع أفراد الطبقة الأخرى من الصعود إلى مراكزها، والثانية تشعر بأنها مستغَلة وضعيفة ولابد لها من التماسك والعمل لإزاحة الطبقة الأخرى واحتلال مراكزها.(86)**

**وليس هناك من شك في أن انتماء الفرد لطبقة معيّنة يطبعه بطابع خاص ويحدّد أسلوبه في الحياة ونظرته إليها. كذلك يؤثر على المركز الاجتماعي الذي يؤثر على ما يمكن أن يحصل عليه الفرد من قوة ونفوذ في المحيط الذي يعيش فيه. وهذا ما حدا بـ"جنزبرج"Ginsberg إلى القول: "إن الطبقة الاجتماعية يمكن وصفها كجزء من المجتمع أو مجموعة من الأفراد يقفون متراصيّن في علاقة من المساواة، ويتميّزون عن باقي الأجزاء بقبول مستويات من النقص أو الرفعة."(87)**

**وفي السياق نفسه يرى "توماس مارشال"T.Marshall "1937-1982" أن جوهر الطبقة الاجتماعية هو الأسلوب الذي يعامل به الفرد زملاءه ويتبادل الأسلوب الذي يعاملهم به، فليست الأنواع ولا الأملاك هي التي تعلّل المعاملة فكل طبقة اجتماعية يوجد فيها نوع معيّن من السلوك أكثر ترجيحاً عنه في أي مكان آخر، وهي تحدّد إلى حدٍ بعيد فرص الحياة لأعضائها، فضلاً عن ذلك تتميّز كل طبقة بعادات في الزواج والمأكل والمعيشة، وترسم الملامح الاجتماعية للشخص، فتصنع مهنته، ومَنْ يتزوج؟ وكيف يسلك؟ وما يفكّر فيه؟ وتذهب إلى أبعد من ذلك حينما تتحكّم فيما يلبسه وما يأكله ومَنْ يمكن أن يكلمه. وباختصار الطبقة تحدّد كل ما يتعلق بالحقوق والواجبات التي تتضمنها حياة الفرد الاجتماعية.(88)**

**وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن الطبقة الاجتماعية تتميّز بنوع من التفاعل الداخلي المغلق والذي من خلاله تفرض على أعضائها ضبطاً داخليا ًInternal Control لا يتيح لهم التصرف إلاّ بالشكل الذي حدّدته لهم مسبقاً، مثال ذلك: تمنع الطبقة العليا أبناءَها وبناتها الزواج من الطبقات الأخرى، كما أن الطبقات الأخرى يصعب عليها استيعاب فكرة الزواج من الطبقات العليا حتى وإن أمكن ذلك، كذلك تتفاعل كل طبقة فيما بينها من حيث التزاور وتبادل الهدايا..الخ. أمّا خارج حدودها فتفرض على أبنائها أن يسلكوا بطريقة معيّنة تجاه الطبقات الأخرى، فمثلاً تفرض الطبقة العليا عدم الاختلاط بأفراد الطبقات الدنيا كما تفرض عليهم صيغ الكلام والتفاعل التي يجب أن يستعملوها حينما يضطرون إلى الاختلاط بمثل هذه الطبقات.**

**وعندما تسيطر طبقة من الطبقات في مجتمع ما فإنها تمارس أساليب من الضبط وتستعمل وسائل مختلفة لتحفظ استمرار وجودها، فتعمل على استغلال كل ما يمكنها استغلاله لخدمة مصالحها مثل السلطة والقانون والآداب والدين، بل وتستخدم حتى أساليب التزييف والخداع لأجل إعطاء صورة شرعية لمركزها، وأحياناً تحاول الظهور بمظهر الفضيلة فيعمد أعضاؤها إلى التبرع والإحسان للمؤسسات الخيرية، وهي بكل ذلك تحاول أن تحافظ على الحدود واضحة بينها وبين الطبقات الأخرى، أي تمنع حدوث حركية طبقية إلاّ إذا شعرت بقوة الضغط الموجه ضدها ففي هذه الحالة تعطي بعض الحقوق والامتيازات لعدد قليل من أبناء الطبقات الأخرى وتسمح لهم بالدخول في كيانها ثم تأخذ بعد ذلك بالسماح التدريجي للحركية الطبقية لأن تحدث.(89)**

**إن الهدف الأساس من ممارسات الطبقة المتحكّمة أو المسيطرة هو تحقيق الضبط الاجتماعي الذي يؤمَّن مصالحها، ويحافظ على استقرارها واستمرارها، غير أن مثل هذا الضبط يتعرض إلى التمزق بسبب انعدام الحركية الطبقية ووجود الاستغلال والاضطهاد، ما يؤدي إلى تجمع عوامل النقمة لدى الفئات المحرومة والمضطهدة فتحوّلها إلى فئات ناقمة ضد قيم الطبقة المتحكمة وضوابطها ما يدفعها في النهاية إلى انتهاز الفرص للقضاء عليها وإزالة تحكمها.**